

حماية التفكير

وتكريم النبوغ

للأستاذ محمد عبد الله عنان

التمتدنة لتشجيع الحركة الفكرية ، وتكريم أبنائها العنازين بسمو التفكير والابتكار ، ومعاونة الأذهان والمبقيات المغمورة على الظهور والعمل لاستثمار كفاياتها ومواهبها في مختلف النواحي . ولتلاحظ أن هذه الجوائز الشهيرة إنما هي من وضع فرد فقط ، وأن كثيراً من الأغنياء في بلاد الغرب يخذون مثل الفرد نوبل فيهبون الألوف والملايين إلى الجامعات والجماعات العلمية والأدبية ؛ ويرتبون الجوائز لتشجيع الباحثين والمفكرين ، وإظهار جهودهم ، وتمنحهم نبوغهم ؛ وفي كل يوم نقرأ نبأ هذه الهبات والجوائز السنية ، وهنأ إعجاباً وإكباراً لهذه النفوس والههم الرفيعة التي تجتهد مثلاً الأعلى في العمل على تشجيع المثل العليا ، ولا تنظر إلى المال إلا كوسيلة لأذكاء النبوغ واستثماره لخير العلم والانسانية . وفي هذه الأم التي بتقدم أغنيائنا للاضطلاع بهذه الأعمال الجليلة نجد الحكومات والهيئات العلمية الرسمية تمنى أشد العناية بيزل هذا التشجيع المنظم للدرس والبحث والنبوغ ؛ ففي الجامعات ترتب جوائز دأمة لنواحي الطلاب ، فضلاً عن إعفائهم من أجور الدراسة ، وترتب جوائز دورية مختلفة لتشجيع البحوث والجهود العلمية المتأخرة ؛ ولا تكاد توجد هيئة علمية أو أدبية ، إلا ولها جوائز دورية ثابتة تمنح لكل عامل لتحقيق الأغراض العلمية أو الأدبية التي رتب لتشجيعها . وأماناً مثل الجمعيات الطبية والجغرافية والتاريخية في مختلف العواصم الغربية ، فإنها جميعاً تيزل من المعاونات المادية في سبيل البحث والدرس والاستكشاف ما هو معروف ومشهور ؛ ويكفي أن نذكر أن معظم الاكتشافات العلمية والطبية والجغرافية ، تم تحت رعاية هذه الهيئات المحترمة . بل يكفي أن نذكر أن معظم العلماء والمكتشفين لا يستطيعون القيام بمشروعاتهم إلا بمؤازرتها المادية ، وأنها هي التي أوفدت في العصر الحديث معظم المكتشفين إلى مختلف مجاهل أفريقيا وآسيا والقطبين

والخلاصة أن الهيئات الرسمية والخاصة في هذه الأم العظيمة ، تتحد جميعاً في مؤازرة الحركة العلمية ، وتشجيع التفكير والنبوغ بجميع الوسائل . على أن أبداع ما في هذه النزعة ، هو الجهود الخاصة والفردية ؛ وليس مثل الفرد نوبل وحيداً ، وإن كان من أعظم الأمثلة وأبداعها ؛ فهناك في فرنسا مثلاً مشروع جائزة

نقرأ تباعاً أبناء الجوائز العلمية أو الأدبية أو الفنية التي تمنحها المؤسسات والهيئات العلمية المختلفة لأقطاب رجال التفكير والآداب والفنون ؛ وهناك غير الجوائز المحلية القومية التي تنظم في كل أمة لتشجيع الحركة الفكرية ، جوائز عالمية ترى إلى تشجيع أبداع ما يخرج الذهن البشري في أي البلاد أو الأم ؛ ولعل جوائز « نوبل » هي أشهر جوائز من هذا النوع ، فهي تمنح إلى أقطاب العلم والأدب والسياسة في أنحاء العالم دون فارق بين الجنسية أو الدين أو اللغة ، ثم هي تمنح للنساء كما تمنح للرجال ؛ وهذا هو أبداع ما في هذه الجوائز ، فهي تقصد إلى تكريم النبوغ البشري حيث يوجد ، وهي ترتفع فوق جميع الاعتبارات القومية ، ولا تنظر إلا إلى أفق الانسانية الشاسع . ولقد خلد الفرد نوبل السويدي ، صاحب هذه الوصية العلمية والانسانية الجليلة ، اسمه بتأسيسها وتنظيمها بما لم يخلده فاتح ؛ والواقع أنه لم يكن ينقص هذا المحترق المبقرى شيء من بعد الصيت والذكرى ، فقد كان عالماً ومخترعاً عظيماً ؛ له ثبت حافل من الاختراعات العظيمة ؛ وقد كان لتجاربه واكتشافاته في أواخر القرن الماضي أثر عظيم في تقدم الفنون العسكرية ولا سيما فيما يتعلق « بالديناميت » الذي وصل إلى اكتشافه وتركيبه . ومن القريب أن يتجه هذا الذهن الذي أنفق نبوغه في اختراع المفرقات المهلكة ، إلى تشجيع النبوغ البشري في مختلف نواحي التفكير والآداب ، وأعرب منه أن يتجه إلى تشجيع السلام العالمي ، فيخصص ضمن جوائزه الشهيرة جائزة لأية جماعة أو شخصية تمتاز بخدماتها الجليلة لقضية السلام

وليست جوائز نوبل سوى مثل من أمثلة لا تحصى لهذا النظام الم محمود — نظام الجوائز العلمية — الذي ترتبه جميع الأم

« جونكور » الذى وضعه الكاتب الفرنسى أدمون جونكور لتتويج الآثار الأدبية البارزة ؛ وقد وهب المشروع مالا كثيرا ، وما زالت « أكاديمية جونكور » منذ أواخر القرن الماضى تمنح جوائزها الأدبية للكتاب والقصاصين النابهين ، عاماً بعد عام ؛ وما زالت تعتبر شرفاً أدبياً يطبع الفائزين بطابع النبوغ ، ولا سيما كتاب الشباب ، ويفتح أمامهم أبواب المستقبل الذهبى ؛ وهناك أيضاً أمثلة عديدة لهذه الجهود والمنشآت الفردية ، كما أن هنالك صحفاً كثيرة تنشئ مثل هذه الجوائز الأدبية ؛ وهذه الجهود المتحدة بلا ريب أثرها القوى فى تقدم الحركة الأدبية وازدهارها فى هذه الأيام

أما نحن فلم نعرف بعد أهمية هذه المؤازرة العلمية ، ولم تأخذ بها إلى اليوم جهاتنا العلمية الرسمية ؛ ولم يسفها بعد أغنياؤنا . فوزارة المعارف لم تقسح فى ميزانيتها أى مجال لمثل هذه المؤازرة ، لأنها لا تريد على ما يظهر أن تضطلع برعاية الحركة الفكرية العامة ، وتريد أن تقتصر دائماً على شئونها الإدارية ؛ ولدينا جامعة دينية عظيمة ولها ميزانية ضخمة ، ولكننا لم نسمع أنها تقدمت ذات يوم لمؤازرة أى مجهود علمى حتى فى دائرة مهمتها الدينية ، فلم تسام قط فى تشجيع الباحث الاسلامى الذى تنفق فى سبيلها الجامعات الأوربية مئات الألوف تحقيقاً لمهمتها العلمية ، ولم تسام قط فى إخراج أى أثر دينى أو عربى جامع ؛ ولم نسمع أنها رتبت جائزة علمية محترمة ؛ ولدينا الجامعة المصرية ما زالت تحتفظ بأفقها المدرسى ، وما زالت بعيدة عن أن تخلق ذلك الجو العلمى الذى يمكن أى تنضوى تحت لوائه الجهود العلمية الفردية ؛ ولم نعرف أن الجامعة ساهمت فى تشجيع مجهود علمى فردى ، ولا نعلم أنها على استعداد لذلك ؛ كذلك لم نعرف الجامعة المصرية بعد نظام الجوائز العلمية والأدبية المحترمة ، وإن كانت تعرف كيف تنفق على الأساتذة الأجانب ؛ ولدينا عدة جمعيات علمية تتمتع بالرعاية الرسمية وبأموال الدولة ، ولكنها جميعاً أجنبية فى روحها وعواطفها ، ولا يمكن أن تعتبر محالاً مصرية ، ولا يمكن أن تضطلع بمثل هذه المهام العلمية المحلية ، التى يجب أن تتوفر لمؤازرتها عاطفة قومية لا توجد فى هذه الجماعات

على أن هناك لدى جهاتنا الرسمية نزعة أخرى إلى تشجيع

الجهود « العلمية » لا يمكن تجاهلها ، ولكنها مع الأسف وقعد على الأجانب ؛ ونستطيع أن نحصى عشرات العلماء الأجانب الذين يفوزون بتمضيد الهيئات الرسمية المصرية للقيام بمختلف المهام العلمية أو لإخراج جهودهم ، وهم لا يجدون مشقة فى الحصول على هذه الهبات والجوائز السنية ؛ ولكنك لا تجد مفكراً مصرياً استطاع أن يحظى بهذه الرعاية . ولا ريب أن تشجيع الجهود العلمية مبدأ محمود فى ذاته ، والسلم لا وطن له ؛ ولكنك لا يقتضى الأبطال وحرمان المفكرين المصريين من كل تمضيد ومعاونة ، بينما يرنع العلماء الأجانب فى أموال الأمة المصرية ؛ وما زلنا نذكر المضجة التى قامت منذ أشهر حول النعج المالية الباهظة التى أغدقت على أستاذ انكليزى هو الكبتن كرزويل ، لى يخرج كتاباً له ولم يخرج منه سوى مجلد واحد ، وكان مجموع الهبات التى استولى عليها من مختلف الجهات الرسمية يبلغ بضعة آلاف جنيه ؛ وهناك علماء أجانب يتقاضون الألوف المؤلفة من الأموال المصرية لى يضمنوا كتباً معينة ؛ وتطلع علينا هذه الكتب من آن لآخر باللغات الأجنبية ، فلا نراها ترتفع الى مستوى المؤلفات العلمية القيمة ، ولا نرى فيها سوى كتب دعابة ينقصها الطابع العلمى المحترم ؛ وما زلنا نذكر تلك البدعة التى ظهرت فى الأعوام الأخيرة ، وهى انتداب بعض الجهات الرسمية لبعض العلماء الأجانب الذين يؤمنون مصر فى الشتاء زائرين متزهين ، لألقاء بعض المحاضرات ، ومنحهم عن المحاضرة الواحدة مكافآت باهظة تبلغ أحياناً خمسين جنيهاً

لقد كانت الرعاية العامة وما زالت أصعب عامل فى تشجيع الحركات الفكرية وازدهارها . ومع أن قسطاً كبيراً من هذه الرعاية تضطلع به الهيئات الخاصة والأفراد النابهون فى الأم الحية ، فإن الحكومات والجامعات وما إليها من الهيئات العلمية الرسمية تقوم بتنظيم هذه الرعاية والسير على توزيعها حيناً تبرغ بواد النبوغ . ذلك أن النبوغ يعتبر فى الأمر الحية ثروة قومية يجب المحافظة عليها واستثمارها وحمايتها من عوامل الخمول واليأس . ولقد مرت عصور كثيرة فى تاريخنا كانت الحركة الفكرية فيها تأخذ حظها من الرعاية والمؤازرة ؛ وكان العلماء

الشيخ الخالدي

للدكتور عبد الوهاب عزام

لقيت في الآستانة منذ خمس سنين شيخاً جليلاً ينقب عن الكتب ، ويتحدث عن نوادرها ، وعرفت أنه الشيخ خليل الخالدي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس

ثم شرفت بلقائه في مصر مرات . كان كلما قدم القاهرة تفضل بفرادى في الجامعة . تقابلنا مرة فتكلم عن الكتب والمؤلفين كلام خبير بمجاعة . غرست على لقائه والأفادة منه فراغني علم لا ينفد ، وحفظ لا يخطئ

يبدأ حديثه عن الكتب ، فيذكر أنه رأى كتاب كذا في مكتبة كذا ، ويصف النسخة وما عليها من سماع العلماء ، ثم يتكلم عن قيمة الكتاب ومكانته بين أشباهه ، ويذكر المؤلف فيبين عن تاريخه ومكانته من العلم ، ودرجته بين العلماء ، وأهم جراً ، يقضى من حديث إلى حديث ، والسامع فرح بما يسمع ، معجب متعجب . وقد زار مكاتب الآستانة والأناطول وقينا والشام ومصر وبلاد الغرب والأندلس ، ونقب فيها عن نقائس الكتب ، فأحاط بما لم يحيط به سواه . والشيخ حفظه الله منقطع النظر في هذا الموضوع ما رأيت ولا سمعت بمثله

وهو من أسرة الخالدي إحدى أسر الشام العظيمة ، تنسب إلى سيدنا خالد بن الوليد . وهي معروفة في التاريخ بأسرة الدري ، وفيها العلماء والقضاة في الشام ومصر منذ خمسمائة وخمسين سنة والشيخ زليل القاهرة الآن . وقد أسعدني الجدة بلقائه مرات في شعبان ورمضان هذا . وأرجو أن أسعد أنا وأصدقائي بحديثه مرات أخرى قبل رجوعه إلى فلسطين

وقد حرصت أن أكتب عن الشيخ بعض أحاديثه دون أن أشعره بذلك ، فلما اجتمعنا في حلوان ليلة السبت ثامن رمضان ، سأله بعض الحاضرين سؤالاً فشرع في حديثه ، فدوت بعض ما قاله إجمالاً ، ثم عدت إليه بعد انقضاء المجلس ففصلته على قدر ما وعيت . وإني أقدم للقارئ هنا ما حفظته عن الشيخ العلامة في ذلك المجلس :

والمفكرون يتبأون أرفع مكانة وتنفق عليهم المنح والهبات الوفيرة لكي يفتح نبوغهم ويستطيعون العمل في دعة وسكينة ؛ وكان الخلفاء والسلاطين يأخذون بأعظم قسط في تشجيع الحركات الأدبية ، وكان من بواعث الفخر أن يكون القصر أو العاصمة ملاذاً لأكبر عدد من الكتاب والشعراء ؛ وكان من زينة العصر والدولة دائماً أن تزدهر الحركات الفكرية في ظل الرعاية الرسمية ؛ وهاهو ذا الأزهر لم يعاونه على الحياة حتى عصرنا سوى التفات السلاطين إليه وتمهد علمائه وطلبته بالبدل والعون . ولم يكن الملقق ، دائماً ، كما هو الشأن في أيامنا نحن هذه الرعاية . ذلك أن رعاية العلم والعلماء في تلك المصوّر كانت تعتبر من واجبات الدولة القوية المستنيرة ، وكان العلماء يعملون في ظل هذه الرعاية مستقلين في الغالب ، ولم يكن يطلب إليهم دائماً أن يكونوا أذناناً أو دعاة للأمر أو الحكومات التي تشملهم برعاية يعتبرونها حقاً دائماً لهم يجب تأديته إليهم

ومن المبعث أن ندعي أن الحكومات والمؤسسات الرسمية المصرية المختلفة قد استطاعت أن تؤدي هذا الواجب العام أو بعضه نحو رعاية الحركات الفكرية في عصرنا . والحركة الفكرية لم تنفد شيئاً من تلك الدعايات الواسعة التي تذاع حولها ، وتلك المنشآت القيمة التي تقام باسمها ، والتي يراد أن تكون هياكل فقط تعجد العصر وتنسب إليه ؛ وما يخشاه هو أن الجهات الرسمية ما زالت بعيدة عن تقدير هذا الواجب ، بعيدة عن تأديته . إن النبوغ في مضر ما زال يعني الفقر والبؤس ، إذا لم يوفق من تلقاء نفسه إلى الخروج من غمرة الظلمات والصعاب التي ينشأ فيها ؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، هو أن النبوغ يعتبر في مصر أحياناً خطراً يخشى منه ويجب اتقاؤه ؛ وعندئذ يشتري لا ليمضد ويزدهر ، بل لكي 'يسكت ويقتبر' . أما أغنياؤنا فلن نطعم أن نجد بينهم واحداً يقدر واجباً لا تقدره الحكومة ؛ ومن المحال أن يروا مثلهم الأعلى في رجال كالفردي نوبل يرون ذكر الإنسانية في صون التفكير الإنساني ، والارتفاع به إلى ذرى التقدير والاحلال ما

محمد عبد الله عتاه
الهامي